صورة القدس في المخيلة الاستعمارية

إقتلاع الماضي والحاضر

محمد الأسعد

في معرض نقدها لنهج الحفريات الأثرية الذي هيمن على مجال علم الآثار الفلسطيني- السوري، تشير الباحثة كارول ميريز إلى "أن جدول أعمال النصوص هو الذي حدد جدول أعمال حفرياتنا"(1). ويمكن أن أضيف بناء على قراءاتي في ماكتبه عدد كبير من الباحثين والمنقبين في هذا المجال، أن الخيال لعب دوراً أوسع في تحديد جدول أعمال الحفريات وقراءة ما يعثر عليه المنقبون. وأضيف أيضاً مع الباحث كيث وايتلام، أن " صياغة المفاهيم وتمثيل الماضي هنا تكتنفهما الصعوبات، ليس لمجرد قلة وإبهام المعطيات، بل لأن إنشاء التاريخ، سواء كان مكتوباً أو شفهياً، وسواء كان تاريخا للماضي أم الحاضر، هو فعل سياسي"(2)
ولكن الأكثر لفتاً للنظرأن خطاب الاستشراق الغربي الغالب في تعامله مع حاضر وماضي فلسطين والوطن العربي عموما، جمع هذه السمات الثلاث على صعيد واحد. فهو باعتماده أولا على حكايات النص التوراتي، وثانياً على خيال المهووسين بهذا النص إلى حد إصابتهم بلوثة عقلية اصطلحوا على تسميتها باسم لوثة أورشليم (3) وثالثاً على استراتيجيات السياسات الاستعمارية، وضع جدول أعمال التنقيب والبحث والتفسير، ولم يعد قادراً على قراءة العاديات الأثرية خارج هذا الثالوث العجيب.
وقصة هذا الخطاب الذي يغذي خيال عامة الناس والباحثين والأدباء والرسامين والرحالة والمغامرين العسكريين القادمين من الغرب يمكن أن ترويها بتركيز وجلاء أكثر حكايتهم مع القدس العربية .
ولنبدأ بمخيلة الشاعر الإنكليزي وليم بليك وكيف تصور القدس وأسقطها على إنكلترا، ثم تمازج هذا الخيال مع نصية مشروعات صندوق استكشاف فلسطين، وتجسد في مابعد على الأرض في مشروع استعمار فلسطين.
بالطبع، القدس العربية في خيال بليك هي" اورشليم" التوراتية، وتحت هذا التصور نظم قصيدة له شهيرة باسم" اورشليم" أسقط صورتها في البداية على إنجلترا:

لن أتوقف عن الكفاح الفكري
لا ولن ينام سيفي في يدي
إلى أن نبني أورشليم
في أرض انكلترا الخضراء السعيدة

بدأ بليك بنظم وطباعة نسخ من قصيدته هذه بطريقة الحفرفي العام 1804، وعدت من أكثر قصائده التنبؤية أهمية، وتخطت في النهاية عنوانها لتصبح أكثر أعماله قدرة على البقاء؛ لقد أصبحت صرحا

إنكليزيا تقدم كترنيمة في المناسبات الكبرى في كل صيف. وفهم الجمهورهذه القصيدة كلٌ على شاكلته؛ لدى بعضهم كانت حلماً بجنة عدن ريفية وتعهداً قويا بإعادة بناء اورشليم السماوية على الأرض، ولدى آخرين استحضاراً لأخيولة طوباوية عن انكلترا اشتراكية تخيلها الفنانون بدءا بوليم مورس وانتهاءا بموريسي الذي كان كثيرا ما يصعد إلى خشبة المسرح في جولاته الغنائية وترنيمة اورشليم تصدح في خلفية المشهد. أما بالنسبة لأولئك الذين كانت تثيرهم بسهولة فخامة قاعة ألبرت الملكية ، فكانت القصيدة تحتشد بعظمة إنكلترا الإمبراطورية بمرارتها وحلاوتها، وتثير فيهم الأمل في أن المجد مازال في متناولهم. ولاشك أن هذا هو السبب وراء اختيار القصيدة كنشيد رسمي لفريق كرة القدم البريطاني في مباريات اوروبا في العام 2000.

كل هذه " الاورشليمات"، العلمانية والدينية والإشتراكية والقومية، تشترك في سمة واحدة؛ إنها تبدو، برسوخها في التربة الإنكليزية، وكأنها لاتملك إلا القليل تفعله بشأن سميتها "الأصلية" حسب تخيلهم في الشرق الأوسط. ولكن حين نعود إلى رؤيا بليك ذاته وجذورها في ثقافة تسعينات القرن الثامن عشر، كما دفع النقاد طويلا، نكتشف أنه كان يتخيل بناء اورشليم هذه في انكلترا الخضراء السعيدة في الوقت نفسه الذي كانت فيه إنكلترا تتحرك وتقترب أكثر وأكثرمن القدس العربية في فلسطين، او أورشليم كما في مخيلة مفسري التوراة(4)

وبالفعل، فإن الأحداث المضطربة ذاتها التي أعادت الأمل بأورشليم العدالة الإجتماعية في الأوساط الراديكالية في انكلترا، وتحديدا الثورة الفرنسية وحروب نابليون، كانت بالقدر نفسه أداة تؤشر على مرحلة جديدة من الإنخراط الإنكليزي في قضية الأرض المقدسة. ففي حزيران 1799 شاركت قوات فرقاطة بحرية ملكية المدافعين العثمانيين عن عكا في دحر قوات نابليون بونابرت. وستلتفت بريطانيا، الحريصة على حماية طريقها إلى الهند، من الآن فصاعدا إلى فلسطين التفاتا متزايدا مدفوعة بمصالح استراتيجية وسياسية وإقتصادية ودينية متشابكة. ولهذا كان أمرا عاديا، على سبيل المثال، أن تشهد أعمال صندوق استكشاف فلسطين الذي تأسس في العام 1865 لمسح الأرض الفلسطينية ورسم خرائطها، رجال دين يعملون جنبا إلى جنب مع الضباط العسكريين (بل وأن يرجع العسكريون إلى الأسماء الجغرافية التي وضعها لاهوتيون في القرن الرابع الميلادي أمثال اوسبيوس مطران قيسارية)، ويعلن أسقف يورك الذي افتتح أعمال صندوق الاستكشاف بعبارة واضحة الرؤية والهدف:

"هذا البلد فلسطين ينتمي لكم ولي، إنه لنا من حيث الجوهر. لقد منح لأب إسرائيل بهذه الكلمات" إمش في الأرض طولا وعرضاً، لأنني سأعطيك إياها"، وغايتنا أن نمشي في فلسطين طولا وعرضاً، لأن هذه الأرض أعطيت لنا.. إنها الأرض التي يمكن أن ننظر إليها بروح وطنية صادقة كما ننظر إلى هذه الانجلترا العجوز الغالية التي نحبها حباً جماً"(5)

والواضح أن وزارة الحرب أسعدتها سعادة بالغة رعايتها لمشروعات الصندوق؛ لقد تعززت تعززا كبيرا أهمية فلسطين الإستراتيجية مع افتتاح قناة السويس في العام 1869، واحتلال مصر في العام 1882. وتوج التغلغل البريطاني التدريجي في ديسمبر1917، إثر معركة دامية في تلال فلسطين الشرقية، بأن قاد الجنرال اللنبي الجيش البريطاني المنتصر إلى القدس (متخيلا أنها "اورشليم"). وسنجد بعد بضعة أشهرنشيد وليم بليك الذي وضع موسيقاه السير هربرت باري يقدم للمرة الأولى أمام حشد جماهيري واسع.

وفي مكان آخر، يلاحظ جان ويتكي أن قصيدة وليم بليك هذه نبذها النقاد فور نشرها في العام 1811، واعتبروها قصيدة مخبولة، ولاحقا ظل حتى النقاد الذين أدخلوها في عالم الأدب يعتبرونها شظايا قصيدة وليست قصيدة كاملة. ولم تكتسب قيمتها إلا في عشرينات القرن العشرين، أي بعد الإحتلال البريطاني لفلسطين(6).

*   *   *

نأتي الآن إلى مخيلة رسام من وزن الرسام الهولندي رمبرانت. أنتج هذا الرسام أكثر من 70 رسماً دينيا تعكس الميل الهولندي إلى تفسير قصص التوراة بتعابير سياسية ودينية معاصرة، وتنقل حدثا توراتيا من مدينة فارسية إلى القدس، باستخدام تقانة الحفر والطباعة استجابة لسوق هولندي مزدهربالموضوعات الدينية. واستخدمت هذه الأعمال المنشورة كمجموعات من قبل المستهلكين كرسوم إيضاحية ترافقهم في القراءة اليومية للكتب المقدسة التي كانت من سمات القرن السابع عشرفي شمالي الأراضي الواطئة. وفي هولندا البروتستانتية، اهتم الناس الذين تماهوا بقوة مع العبريين القدماء، والذين رأوا في أنفسهم ورثة "ميثاق إسرائيل مع الله"، بالعهد القديم كما بالعهد الجديد، واستعاروا بحرية بالغة قصصا وأبطالا من التوراة العبرية كي يمنحوا معنى لحياتهم الأرضية والروحية على حد سواء.

الأبرز بين هذه الرسوم تمثيل رمبرانت لحدث شائع من أحداث " سفر أستير" في رسم أطلق عليه اسم "انتصار مردخاي" طبع في العام 1642، يروي قصة إنتصار مردخاي، عم أستير اليهودية زوجة الملك الفارسي، على مؤامرة وزيره هامان للإيقاع به، وتجلى هذا الإنتصارباكتشاف الملك أن مردخاي أنقذ حياته، فأمر بتكريمه في موكب جماهيري على أن يقود حصانه الوزيرالمتآمرذليلا مهانا.

عكست هذه القصة وتمثيلها الميل الهولندي نحو تفسير قصص العهد القديم على أرضية الإهتمامات السياسية والدينية المعاصرة، ورمزالرسم إلى المثل الوطنية للمقاطعات المتحدة بوصفها "أورشليم" جديدة. وفسرت القصة على الأرجح، في ضوء الإهتمام الواسع الذي حظي به تمثيل رمبرانت لهذه القصة الشائعة في شمالي الأراضي الواطئة، في سياق النزاع العسكري مع اسبانيا الذي لم يتوقف إلا مع توقيع معاهدة وستفاليا في العام 1648 بعد حروب الأوروبيين الدينية طيلة أكثر من ثلاثين عاماً .

لقد قرأ الهولنديون في هامان القصة اسبانيا الكاثوليكية (أرض عبدة الأصنام كما تصوراللاهوتيون البروتستانت آنذاك) وفي مردخاي وأستيرصورة مواطني هولندا المتسامحين العادلين الذين انتصروا على العاهل الإسباني وحفظوا المقاطعات المتحدة، أورشليم الجديدة.

على أن اللافت للنظر بعد كل هذا التماهي والتمثيل، أن رمبرانت ينقل مكان الحدث(عاصمة الملك الفارسي سوسة) إلى القدس العربية، ولايجد ما يستوحي منه الصورة المتخيلة للمعبد التوراتي الخيالي إلا مسجد قبة الصخرة، متابعا في ذلك تقليدا ساد منذ عصر النهضة الإيطالية في استخدام قبة الصخرة لإستحضار صورة ذلك المعبد في رسوم الحفر والطباعة. ويشير الاستناد إلى المصادر إلى أن ربط رمبرانت لقصة أستير بالمعبد كان يجد أرضيته في التفسيرات المسيحية(البروتستانتية بخاصة) واليهودية على حد سواء. ولابد أن رمبرانت كان واعيا بالأهمية الخاصة لموضوعة أورشليم وقصة أستير في الثقافة الهولندية. فمع اعتزاز الهولنديين آنذاك بأنهم"إسرائيليون" قدماء كانوا يشيرون أيضا إلى "إمسterدام" والمقاطعات المتحدة بوصفها أورشليم جديدة، أو الأرض التوراتية الموعودة.

في ضوء هذه الإستعارة، يمنح استحضار المدينة المقدسة في مشهد من مشاهد القصة "إنتصار مردخاي" صلة بالعصر الراهن فعالة، ليس باستحضارها في العاصمة سوسة كما قيل في التوراة، ولكن في إمستردام القرن السابع عشر أيضا. وهي قراءة كانت ذات معنى كبير أيضا بالنسبة للهولنديين اليهود الذين فرّوا من الجزيرة الإيبيرية، ورأوا في معاناتهم، هم الذين أجبروا في اسبانيا على اعتناق الكاثوليكية، معاناة العبريين أنفسهم في زمن أستير، فتماهوا معهم، ورأوا في إمستردام " أورشليم" الجديدة ومكان لجوء وتسامح وحياة جديدة(7).

*   *   *

لم يكن مهما بالنسبة للإثنين، الشاعر والرسام، معرفة واقع هذه المدينة في ماضيها وحاضرها، أو لم يكن يعني لهما هذا الواقع شيئا، مادامت المعرفة اللاهوتية التي تقدمها التوراة كافية في نظرهما وفي نظر الجمهور الواسع من المؤمنين بأن النص اللاهوتي يعكس الجغرافية والتاريخ بأمانة .

وسيجد هذا الإيمان صداه في كل المشروعات الاستعمارية بدءا من مشروع كولومبوس للدوران حول الكرة الأرضية والوصول إلى القدس في القرن الخامس عشر، وصولا إلى مشروع الحركة الصهيونية في إحتلال فلسطين وإبادة سكانها في القرن التاسع عشر، اولئك الذين كانوا يسكنون أرضاً "خالية " وغير "موجودين" في الوقت نفسه في نظرالقادمين بحماية حراب الإمبراطورية البريطانية . هذه الذروة الأخيرة يلخصها أوفى تلخيص المؤرخ إيلان بابيه، وهو أحد أبناء أسرة ألمانية يهودية هاجرت إلى فلسطين في ثلاثينات القرن العشرين، وعمل محاضرا في جامعة حيفا فترة من الزمن، قبل أن يهاجر إلى بريطانيا ويعمل في جامعة اكستر منذ العام 2007، في مطلع كتابه" تطهير فلسطين عرقيا"؛ إنها ذروة مشروع إبادة تضمنه المشروع الصهيوني منذ إنطلاقه.

يقول إيلان بابيه، أن غالبية قادة الحركة الصهيونية ربطوا بين حركتهم القومية التي ظهرت في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر في وسط وشرقي أوروبا، وبين استعمار فلسطين، وظل آخرون بما فيهم مؤسس الحركة تيودور هيرتزل متأرجحين، ولكن بعد موت المؤسس في العام 1904، تثبت إتجاه الحركة نحو استعمار فلسطين وحظي بالإجماع.. وإدعى الزعماء الصهاينة ملكية الأراضي التوراتية وأعادوا خلقها أو اخترعوها بالأحرى، في سياق "قومنتهم" للديانة اليهودية، كمهد لحركتهم القومية الجديدة. وفي ضوء هذه الرؤيا كانت فلسطين في نظرهم أرضا يسكنها"غرباء"، ويجب أن يعاد امتلاكها. وعنوا بالغرباء هنا كل من هوغير يهودي يعيش في فلسطين منذ الفترة الرومانية.

ويرى بابيه أن الكثير من الصهاينة حين وصلوا إلى فلسطين في العام 1882، لم يروا فيها حتى أرضا "محتلة"، بل كانت أرضا " خالية"؛ أهلها الفلسطينيون الذين يعيشون فيها كانوا في نظر هؤلاء"الامرئيين"، أو إذا لم يكونوا كذلك فهم ظاهرة طبيعية مؤذية، ولذا يجب التغلب عليهم وإزاحتهم عن أرضهم. ويجب أن لايقف شيء، لاالحجر ولاالفلسطينيين، في طريق " الإنبعاث" القومي للأرض التي اشتهتها الحركة الصهيونية (8).

وبالعودة إلى كولومبس، فمن الشائع عن رحلته البحرية أنها إنطلقت غربا بهدف استكشاف طريق الى ثروات الهند عبرالمحيط الأطلسي، ووقعت بالمصادفة على العالم الجديد، أي الأمريكيتين، وهناك اكتفت إسبانيا بهذه الغنيمة، تاركة الشرق للبرتغال ومن تبعهم من غزاة هولنديين وفرنسيين وإنكليز. ولكن دراسة فريدة من نوعها للباحث عباس الحمداني في العام 1979 ألقت ضوءا جديدا هو الأول من نوعه على هذه الرحلة وأهدافها، وهذا تلخيص موجز لهذه الدراسة(9):

لاحظ الباحث، بعد قراءة يوميات كولومبس والدراسات التي نشرت حولها، أنها تشير إلى مشروع كولومبس الحقيقي الذي ولد في ظل إيمان قروسطي حافظ على حل مشكلاته بالتوسع، ولكن هذه المرة بالدوران حول الأراضي الإسلامية والوصول إلى الهند . فإذا لم "يعد ممكنا إنتزاع الضريح المقدس في اورشليم من قبضة الأتراك بالوسائل العادية، فليكن مسعى أوروبا إلى وسائل جديدة في ما وراء البحار، وسيكون كولومبس حامل رسالة المسيح الأداة المتواضعة لتجديد أوروبا" على حد تعبيرصوموئيل موريسون. وشدد أنطونيو باليستيروس على دوافع كولومبس في البيئة الصليبية التي

شاعت في إسبانيا القرن الخامس عشر. وأشار الباحث الحمداني إلى أن واشنطن إيرفنج أول من لفت الإنتباه إلى "هدف كولومبس الصليبي باحتلال أورشليم "، ولخص أهدافه بثلاث مراحل تتبع إحداها الأخرى؛ اكتشاف العالم الجديد وهداية الأغياروإستعادة الضريح المقدس. إلا أن إيرفنج شأنه في ذلك شأن الباحثين المشار إليهما لم يذهب عميقاً في استكشاف العلاقة بين الرحلة غربا واستعادة الضريح المقدس. ولكن الباحث جون فيلان في السنوات الأخيرة قدم دراسة عن علاقة كولومبس بطائفة الفرنسيسكان وتطور عقليته في ضوء هذه العلاقة. ويعتقد فيلان أن المثال الصليبي التقليدي كان دافع كولومبس مابين العامين 1492 و1498، إلا أنه مابين العامين 1501 و1502 ربط الموروث الصليبي برؤيا آخروية عن نفسه كمخلص. أي أن فكرة غزوه للقدس كان فكرة رمزية. هنا يتقدم الباحث الحمداني، بعد تمحيص ماسبق من أفكار، برؤيته عبر قراءة اليوميات والأحداث التاريخية ويتوصل إلى أن كولومبس لم يكن رجل خيال فقط بل كان رجل عمل أولا. ومن هنا "كانت رغبته الحقيقية هي الإنتزاع الفعلي لأورشليم" من أيدي المسلمين وشق طريق جديد من أجل تحقيق هذه الغاية.

يقول الباحث إن الوصول لهذا الهدف كان وفق كولومبس يمر بثلاث طرق:

1- الإتصال بخان المغول الأكبرالمساند للمسيحية في الشرق، ذلك الذي يفترض أنه ذاهب إليه عبر المحيط غربا. وسيؤدي هذا الإتصال بين المسيحية الغربية والشرقية إلى توحيد الكفاح لإستعادة اورشليم من حكم المسلمين.

2- إستخدام موارد الأراضي الجديدة المكتشفة في غزو أورشليم خلال ثلاث سنوات.

3- قوة الشخصية المسيحانية، قوة المخلص، التي رأى كولومبس ذاته فيها وفق تنبؤات عدد من القديسين أشاروا إلى أن المخلص سيأتي من إسبانيا.

ويتضمن هذا المشروع تطويق وسحق ماكان آنذاك يمثل قوة الإسلام المركزية، مماليك مصر وسوريا، حراس الأماكن الإسلامية المقدسة، مكة والمدينة، الذين رأى فيهم العالم الإسلامي قادة له. كان المماليك هدفا رئيسيا، فهم "مسؤولون عن أخذ أورشليم أخيراً في العام 1244، وانطاكيا في العام 1268 وعكا في العام 1291. وبهذا أجبروا الجيوش الصليبية على الجلاء تدريجيا عن شرقي المتوسط. إضافة إلى أنهم كانوا مسؤولين عن إحباط التحالف الكبير الذي كان السعي إليه محموما بين البابا وأمراء المسيحية من جانب وبين خان قراقوم الأكبروبكين وإليخانات تبريز وبغداد من جانب آخر، التحالف الذي استهدف إعادة إحتلال القدس مشاركة. وجاء هذا الإحباط حين أوقف المماليك في العام 1260 إندفاع المغول حلفاء المسيحية غرباً في عين جالوت إيقافا لارجعة عنه.

كان هذا بعدا من أبعاد مخطط كولومبس، ولكن كان هناك بعد آخر، ذلك هو البعد التجاري. فنظام المماليك يقع على طول امتداد طريق التجارة الدولي من الشرق إلى الغرب لأنهم يمسكون بالمناطق المحاذية للبحر الأحمر.وقد احتل السلطان المملوكي الأشرف بارسباي(1422-1438) قبرص في العام 1424، ووضع نهاية لمملكة صليبية قامت هناك لزمن طويل، واحتكر تجارة السكر وفرض رسوما على التجارة الأوروبية مع الشرق مما أثار احتجاجات دول المدن البحرية الإيطالية. وتم خنق التجارة الأوروبية أيضا حين قطع الطريق البري إلى الصين بعد العام 1368 حين غزا أباطرة أسرة منغ الصينية منغوليا وأواسط آسيا، وعززوا طريقا تجاريا منافسا يبدأ من موانيء الصين الجنوبية عبر المحيط الهندي باتجاه الشرق الأوسط وشرقي أفريقيا تحت قيادة أمير البحر الصيني المسلم تشنغ هو. وإنقطع أيضا الطريق البري جنوب بحر قزوين بعد أن تبنى إليخانات فارس الإسلام، وترسخت سلطة التيموريين في أسيا في العام 1379. ولم يعد الطريق شمال بحر قزوين موضع نقاش بعد أن بدأت غزوات العثمانيين في أواسط أوروبا منذ العام 1389.

في ضوء كل هذا، لو عثرت اوروبا على طريق تجاري جديد إلى الشرق لاستقلت اقتصاديا عن الشرق الأوسط الإسلامي. وبالفعل بدأ بعض الأوروبيين يفكر بأن حصارا تجاريا للشرق الأوسط قد

ينتج خنقا اقتصاديا يؤدي في المطاف النهائي إلى سقوط البلدان الإسلامية سياسياً، وبهذا تتحرر أورشليم، ويفتح الشرق الأوسط مرة أخرى للحملات الصليبية والإستعمار. ودافع عن هذه الفكرة بقوة أحد نبلاء البندقية المدعو مارينو سانودو، وقدم إلى البابا جون الثاني والعشرين مخططا في العام 1321 لتحرير المقدسات،يحتوي ضمنا مفهوم حملة صليبية جديدة، تبدأ بفرض حصار بحري على مصريؤدي إلى انهيارها، على أن تتبعه موجتان من الإجتياحات العسكرية الأوروبية. هذه الغاية التزم بها البابا والمدن الإيطالية وحكام البرتغال وحكام إسبانيا وكولومبس ذاته. ولكن تنوعت شدة هذا الإلتزام بين هذا الفريق أوذاك.

وأعطى حدثان كبيران آنذاك حافزا إضافيا لعملية العثور على طريق جديد نحو آسيا؛ إحتلال العثمانيين للقسطنطينية في العام 1453 ، وأخذ غرناطة، آخر موقع إسلامي في إسبانيا على يد الإسبان في العام 1492. كان الحدث الأول هزيمة صدمت العالم المسيحي وأنعشت النشاط الصليبي، وكان الثاني نصرا شجع إسبانيا على ملاحقة العدو الإسلامي حتى عتبة بيته. وهناك في غرناطة، بعد إحتلالها ببضعة أشهر، تم التوقيع على مشروع كولومبس ووضع العاهلان الإسبانيان عليه ختمهما.

ويشيرالكاتب الأمريكي لورنس ديفيدسن (10) إلى هذا النوع من الرؤى الاستعمارية التي لاترى إلا ما ترغب في رؤيته وما يخدم مصالحها في متابعته لسياق استكشاف فلسطين المكثف على يد علماء الآثار الغربيين ، وبخاصة في العقد الثاني من القرن العشرين بعد الإحتلال البريطاني بوقت قصير. فينقل عن ناشر مجلة علم الآثار التوراتي الصهيوني الهوى هيرشل شانكس قوله" .. نحن لانصل إلى الماضي بمجرد الحفر عميقا.. الفهم يتضمن الإسقاط. نحن توقعيون.نحن لدينا فهم مسبق لما وجدناه" ويتابع".. لقد كان هذا العقد عقد نشاط آثاري كبير مع تسهيل البريطانيين وتنظيمهم الوصول إلى البلد أمام علماء الآثار الغربيين .. وأعطت المادة 22 من وثيقة الإنتداب (وهي في الحقيقة وثيقة استعمار فلسطين) الحرية الكاملة لأعضاء عصبة الأمم في إجراء أبحاثهم الآثارية. ومع أن الولايات المتحدة لم تكن عضوا في العصبة، إلا أنها امتلكت مدخلا مفتوحا مماثلا. واستجاب علماء آثار التوراة الغربيون بحماسة يشعلها "التوقع" و"الفهم المسبق"، وتحديدا " الفهم المسبق" بأن التوراة كانت صحيحة تاريخيا، "وتوقع" أن مدخل علماء الآثار الجديد إلى فلسطين سيثبت هذا.

ربما كان البريطانيون مدفوعين نحو تشجيع النشاط الأثري لأن النتائج ستعمم على نطاق جماهيري الروابط التوراتية التي تربط المنطقة بتراث الغرب المسيحي- اليهودي. وكان المتصور أن فلسطين ذات صلة دينية- صوفية بالغرب. فهي في هذا التصور مولد يسوع و"الأرض الموعودة"للشعب اليهودي. وكان تأكيد هذا بوساطة علم الآثار التوراتي يعني الدفاع عن مزاعم حق الغرب في امتلاك المنطقة كما لاحظ نيل آشر سلبرمان. وتضمنت وثيقة تأسيس نظام الإنتداب الذي وضع المنطقة تحت الحكم البريطاني (أي المسيحي) وعينها أيضا كوطن قومي يهودي هذه المزاعم.

وهكذا يمكن أن ينظر إلى علم الآثار التوراتي كأداة لعقلنة السيطرة الإمبريالية. أما بالنسبة لعلم الآثار التوراتي الأمريكي فسيعيد تنشيط عصر إفتتان قديم بالأرض المقدسة. فمنذ أن وفد البيوريتان على أمريكا ، أقام الأمريكيون صلة مفاهيمية بين " أرضهم الموعودة" وفلسطين التوراتية. وخلال القرن التاسع عشررعت أمريكا البروتستانتية عددا من مشاريع الإرساليات في الأرض المقدسة. ونظروا إلى إعادة الإستيلاء والسيطرة المسيحية على فلسطين كخطوة تقود إلى تحريرالأرض. وهكذا، بالنسبة للأمريكيين كما للأوروبيين، فإن فرض الإستعمار الغربي على فلسطين كان متصورا على أنه نعمة إلهية إيجابية.. تؤكد عظمة المجتمع الغربي التي نظر إليها أيضا على أنها من نعم الله. وكان من السهل خلال عملية إنشاء السيطرة قبول فكرة أن العرب سكان البلد الأصليين يجب تجاهلهم أو الحط من قدرهم. وقد عقلن الأمريكيون مثل هذه الأشياء من قبل، وسيلعب علم الآثار دورا في هذه العملية أيضا".

*　　　*　　　*

كل هذه المشاريع استند وتغذى على صورة متخيلة للقدس وفلسطين، أي على خريطة لاتمت للتضاريس الأرضية بصلة، على رؤيا لجوهر ثابت لايتغير مع الزمن، لاتغيره أي نظرة جديدة للتاريخ، ولا تغيره مكتشفات آثرية، ولا أي تقدم من أي نوع في مضمار أي علم من العلوم المعنية بالإنسان والمجتمع والطبيعة، وعلى غاية تسعى إلى استعادة هذا الجوهر وتحويل المكان الواقعي إلى فضاء خال من سكانه ومعالمه الواقعية ليحل فيه هذا الجوهرالمفترض أو يفرض عليه ويتجسد ماديا .

ويشرح الباحث نيل آشر سلبرمان(11) هذا المنحى الخيالي- النصي بالقول:

"كان جوهر الأرض المقدسة التاريخي بالنسبة للكثير من الزائرين والمستكشفين أكثر جاذبية بكثير من واقعها الراهن. فبدءا من خمسينات القرن التاسع عشربدأ علماء الآثار الغربيون بالحفر في الأرض للعثور على آثار ملموسة لهذا الجوهر، لامجرد الإنكباب على الخرائط.. للحفرأفضلية على الدراسة الجغرافية، فما ينتج عنه يمتلك أهمية عاطفية ودينية يمكن مقارنتها بآثار وأكفان وعظام قديسي الأزمنة القديمة. فما أن يتم التعرف على المدن التوراتية حتى يمكن أن تبعث ماديا وتتخذ مكانها كمقامات في جغرافية مقدسة جديدة. وقدم الحفر في أورشليم بخاصة رسالة جلية. فقد عنت عناوين تقارير التنقيبات وملخصات القرن التاسع عشر والعشرين التاريخية، مثل"إستعادة أورشليم" (ولسون ووارين 1871) و "أورشليم تحت سطح الأرض" (وارين1871 وفنسنت 1911) و "أورشليم الباطنية" (جودريش فرير 1904) ضمنياً ، بوعي أو من دون وعي، إن اورشليم المعاصرة اليوم ذات أماكن العيش والعمل والعبادة والأسواق كانت بطريقة ما وهماً، وأن أورشليم الواقعية ضاعت بطريقة ما، طمرت أو أخفيت قبل وصول علماء الآثار الغربيين. ولم يكن تأثير مثل هذا النوع من الترميم التاريخي مجرد تأثير أكاديمي، فبواسطة استبدال جغرافية "توراتية" بمشهد قائم، كان يحدد هوية جديدة للأرض تحديدا مؤثرا. إن حدود "أرض التوراة" كما حددها أولا روبنسون، وبعد ذلك صندوق استكشاف فلسطين بمسوحاته لغرب فلسطين(لا أي تقسيمات سياسية عثمانية قائمة) برهنت على أنها كان حاسمة في تخطيط وتشكيل أرجاء فلسطين الإنتدابية بعد الحرب العالمية الأولى. وحتى في مابعد، في القرن العشرين، ساهمت مباديء الجغرافية التاريخية الأوروبية وبعد أن أنشأت الخطوط العريضة، على حشد الخريطة بالتفاصيل. فخلقت مصادقة حكومة الإنتداب على التبني الرسمي، ألسنيا وتاريخيا، لتسميات الأماكن بالأسماء التوراتية(1929)، ثم تبني لجنة الأسماء الأكاديمية الإسرائيلية للأسماء العبرية، جغرافية معاصرة مختلفة جذريا عن تلك المعروفة لدى سكان فلسطين ومستكشفيها في القرن التاسع عشر.. وبإعادة تصنيع جغرافية وتاريخ فلسطين على غرار صورة فهمها التوراتية، كان مستكشفو وعلماء قوى الغرب الكبرى أدوات في الشرعنة الأيديولوجية لتحول إقتصادي وسياسي لايقل في مداه عن ماتحقق من نجاح تام في مدن أمريكا التي حملت أسماء كنعان الجديدة وبيت لحم والناصرة واورشليم".

الرؤيا الثابتة هي الرؤيا اللاهوتية، ولكنها مع مطلع العصور الحديثة، ومع التطلع إلى استعمار فلسطين، ستصبح هي ذاتها الرؤيا الموجهة للسياسي والعسكري والمستكشف الجغرافي وعالم الآثار وعالم اللغات والمؤرخ والفنان.

يحلل د. جوزيف حجار في كتابه " أوروبا ومصير الشرق العربي" وثائقيا السعي الأوروبي إلى اقتطاع " مناطق نفوذ" خاصة في الشرق العربي بعد العام 1840، أي بعد أن نجح أن التحالف الرباعي الشهير(انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا) في تصفية القوة المصرية وفرض الوصاية على

الباب العالي العثماني. وبدأت كل حكومة أوروبية بتقديم أو تأييد مشاريع تميل إلى إعطاء فلسطين عامة والقدس خاصة وضعا من الإستقلال السياسي والديني تحت النفوذ والمراقبة المباشرة لأوروبا.
في هذا السياق برز مشروعان كبيران تحدثت عنهما مصادر معاصرة عديدة، ويبدو أن مؤرخي الأزمة الشرقية الكبرى في العامين1840 و 1841 تجاهلوا أو طمسوا هذين المشروعين المتعلقين بإسكان اليهود الأوروبيين في فلسطين وتدويل القدس وضواحيها. ويتناول د. حجار هذين المشروعين في إطارهما التاريخي الواقعي فيزعزع الكثير من الآراء السائدة، ويكشف بعض الجوانب المموهة بعناية تحت مظاهر النشاط الديني والكنسي.
الواقعتان اللتان مهدتا لهذين المشروعين الخطيرين تتعلقان بالقدس تحديدا، وهما شراء المبشر نيكولايسن قطعة أرض في جبل الزيتون الذي يطلقون عليه اسم جبل صهيون لبناء هيكل عبادة، وتعيين قنصل انكليزي في القدس في العام 1838 ، كقاعدتين أساسيتين للنفوذ السياسي –الديني لبريطانيا في القدس. في متابعة هذه المشاريع لعب اللورد آشلي، وقريبه بالمرستون، أحد رؤوساء الوزارات البريطانية، دورا فعالا. وتكشف مذكرات آشلي عن حلمه منذ العام 1838 باستعمار اليهود لفلسطين تحت الحماية الإنكليزية. ولم يكن هذا المشروع من وحي عبقريته، بل كان بريطانيون آخرون قد سبقوه في إطلاق هذه الأحلام، من أمثال جيمس بيتشنو الذي أصدر كتابا منذ العام 1800 ينادي فيه ببعث اليهود. في البداية كان صاحب الكتاب يأمل أن تكون فرنسا هي أداة العناية الألهية في تحقيق مشروعه، إلا أن فشل نابليون في استخدام اليهود كأداة سياسية دفع أمله إلى بريطانيا. كان التفكير واضحا منذ البداية ؛ سيكون تجميع اليهود في فلسطين وسيلة لتشكيل مستعمرة للإقتصاد البريطاني الآخذ في التوسع (12).
في سياق هذه الرؤيا الثابتة ستتوالى مشروعات مرافقة؛ فرض خريطة توراتية على الأرض الفلسطينية في العام 1838 على يد لاهوتيين من أمثال الأمريكي إدوارد روبنسون، والتخطيط لاستكشاف فلسطين من منظور الإستيلاء على الأرض كما تجلى في خطاب صندوق استكشاف فلسطين الذي أشرنا إليه، وإشاعة رؤيا عممها مبتدع مصطلح" علم الآثار التوراتي" وليم فوكسويل البرايت، مفادها إن الأرض التي انبسطت أمام عينيه حين دخل القدس بعد الاحتلال البريطاني مباشرة " هي ذاتها الأرض التي انبسطت أمام عيون الآباء العبريين"(13).

* * *

ورد ذكر أخبار خريطة اللاهوتي إدوارد روبنسون في عدة مصادر، أقدمها كتاب لعالم الآثار الإيرلندي ماك آلستر(1920)، وأحدثها ما كتبه نيل آشر سلبرمان، وآخرها ما ورد في كتاب إدوارد فوكس (2001). يأخذ آلستر على خريطة روبنسون أنها لم تكن معنية بأي معرفة قائمة على تنقيبات علم الآثار ولا على تمكن ألسني من اللغة العربية ولا بأي دراسات أنثروبولوجية أو اجتماعية أو طبيعية (14) . بينما يلاحظ عليه سلبرمان أنه جاء حسب تعبيره" ليفتح لأول مرة كنوز الجغرافية التوراتية التي رقدت طيلة قرون بلا اكتشاف ، فتراكمت عليها قمامة وغبار قرون عديدة، بحيث نسي حتى وجودها"ويعلق سلبرمان " ..مع أن " القمامة والغبار" (وهما التقييم الأوروبي المشترك

لثقافات فلسطين المعاصرة) يمثلان تاريخا من المؤكد أنه ليس أقل معنى لسكان البلد من عصوره القديمة، فأنهما بالنسبة لروبنسون ومن تابعه مجرد عائق غير سار يجب محوه"(15)

ويربط إدوارد فوكس بين الدوافع البروتستانتية التي ألصقت روبنسون بحرفية التوراة وبين انتهاكه لمبدأ أولي من مباديء الجغرافية؛ إن المشهد الطبيعي أكثر أهمية من الخريطة، وبدلا من ذلك رأى الخريطة التوراتية أكثر أهمية من المشهد. وينقل اعتمادا على روبنسون أن رحلته إلى الأرض المقدسة كانت استيفاء لطموحه الحياتي، وهو طموح نتج عن تجربة نشأته في ثقافة نيو انجلند، حيث ارتبطت أسماء مثل سيناء واورشليم وبيت لحم والأرض الموعودة بذكرياته المبكرة ومشاعره.

ويقول فوكس أن جغرافية الأرض المقدسة، وهي مفهوم تجريدي لاعلاقة له بجغرافية فلسطين الواقعية، كانت بالنسبة لملايين الأمريكيين من مختلف التوجهات متراكبة مع جغرافية شمالي أمريكا. فالمستعمرون الأوائل في القرن السابع عشراستوردوا معهم رؤيتهم لأمريكا كإسرائيل جديدة ، كمجتمع يتمتع بالعناية الألهية منفصل عن بقية البشر، مدينة" فوق تل" ، وظلت هذه جزءا أساسيا من فكرة أمريكا عن نفسها. وفي استكشافه لفلسطين، كان روبنسون بمعنى من المعاني يستكشف نيو انجلند، كان يغوص في أغوار تجربته وهويته (16).

ويتوج كل هذا، فرض الخريطة والرؤيا واستعمار الأرض، بإقامة متحف بلا عاديات في قلعة مملوكية، أطلق عليها المستعمرون الصهاينة اسم " قلعة داود"، يروي حكاية القدس عبر العصور، ويزج في هذه الرواية بعصور توراتية لاهوتية متخيلة، عبر الصور الهولوغرامية والتسجيلات الصوتية .

جاء في لقاء للباحثة نادية أبو الحاج مع أمينة هذا المتحف الخيالي في القدس، أن هذه الأخيرة أكدت أنه صمم لكي يكون" متحفا بلا عاديات"، يقوم على البعد المعماري وبعد القصة. أي قصة ما تدعوها أورشليم . والمعمار المقصود هو القلعة التي بناها المماليك فوق أنقاض مبنى صليبي من القرون الوسطى بعد تحرير القدس، والتي ألصقت بها سلطات الإحتلال الإسرائيلي اسم" قلعة داود"، ويشير إليها الباحثون الغربيون باسم" قلعة هيرود". وفي هذا المبنى وضعت للعرض أشباه أثرية غير أصلية تحاكي آثاراً لاوجود لها إلا في النص التوراتي. أما الأثران " الحقيقيان" اللذان لاحظتهما الباحثة فهما من آثار المرحلة الإسلامية؛ كتابة عربية ومحراب هما جزء من معمار غرفة عرضا فيها، ولكن بلا أي إشارة إلى هوية هذين الأثرين لأنهما حسب تعبير أمينة المتحف ليسا جزءا من المتحف. وفي جو هذه القلعة، وبين أمثال هذه البقايا الأثرية " الصامتة" تعرض أمام الزوار صور هولوغرامية متخيلة لما يسمى المعبد الأول ويعرض نموذج لما يسمى المعبد الثاني، وأفلام عن تاريخ القدس القريب منذ الإحتلال البريطاني حتى قيام دولة الإحتلال الإسرائيلي. خارج هذا المتحف توجد حديقة نثرت فيها بقايا أثرية محدودة ،يونانية وصليبية وعربية.. إلخ يطل عليها الزوار من بعيد فقط ، في إيماءة واضحة إلى أن هذه الآثار ليست جزءا من تاريخ القدس الذي يروى في الداخل بالصور الخيالية.

وتلاحظ الباحثة أن هذا الإنشاء جاء نتاج محاولة صياغة ماض للقدس "بتحويل المكان وصناعة مشهد جديد" وتقديم تفسيرات للعاديات الأثرية إثر إحتلال القدس القديمة في العام 1967 ، وبداية توسيع رقعة الإستعمار الإستيطاني فورا (17).

وهناك ظاهرة أصبحت عامة في ما يتعلق بالاثار الفلسطينية، وهي تلفيق الصهاينة التوراتيين وتزويرهم لقطع أثرية، بل ولحقب وحضارات متخيلة، وفرض تفسيرات على النصوص الأثرية، أو حتى تحريف بعضها كما كشف الباحث توماس تومسن(18) ورافقت هذه الظاهرة مسار التنقيب في الأرض الفلسطينية منذ أواخر القرن التاسع عشرولا تزال متواصلة حتى الآن، والهدف لايتغير، وهو خلق وجود أشخاص ومراحل تاريخية وممالك وأحداث، وتوزيعها على متاحف تخشى، حتى بعد انكشاف عمليات التلفيق الإسرائيلية، الإعتراف بأن " نفائسها" مجرد نفايات ملفقة لاقيمة لها.

يقوم عمل صناع القطع الأثرية المزيفة على إختلاق قطع، حجرية أو طينية أو رقوق، ونقش نصوص " تؤكد" "وتبرهن" على وجود معبد سليمان في القدس، ووجود أشخاص وأحداث توراتية ذات علاقة بالأرض الفلسطينية. وكثيرا ما يستشهد باحثون على ظاهرة تلفيقات من هذا النوع بسيرة أشهرالملفقين، البولندي المدعو موسس فلهلم شابيرا الذي أفتتح بقالة عاديات في القدس في العام 1862 (19) ، بل ومضى بعضهم إلى الإعتراف أن هذا الملفق الذي انهى حياته منتحراً اخترع بوساطة قطع أثرية(كتابات وتماثيل) " وجود حضارة كاملة" تدعى حضارة مؤاب(20).

أما تزوير وتحريف قراءة النصوص المكتشفة، فهي ظاهرة شائعة وأشد خطرا على المجال العلمي، وخاصة حين يقف وراءها ويروجها " علماء" من ذوي النفوذ الأكاديمي، كما حدث مثلا حين أساء رئيس فريق بعثة فيلادلفيا الأمريكية للتنقيب قراءة نقش مسلة الملك المصري رمسيس الثاني المكتشفة في بيسان (1923)، فجعله يتحدث " عن استخدام " الإسرائيليين" في بناء مدينة هذا الملك، بينما كان النص الأصلي يتحدث عن قبائل العامو والشاشو التي قدمت فروض الطاعة للملك(21). ومثال ذلك إكمال وليم البرايت في العام 1941 لنص على كسرة فخارية من تل الدوير بزج كلمة " سقوط اورشليم" للبرهنة على تاريخية هذا الحدث وعلى الأرض الفلسطينية أيضاً (22). الأخطر من هذا أن هذه" القراءات" الزائفة يتم تكرارها في الكتب العلمية والمدرسية حتى بعد الكشف عن ضلالها. في السنوات الأخيرة، اضطرت حتى الدوائر الصهيونية إلى الإعتراف بوجود الكثير من العاديات الملفقة في متاحفها ومتاحف العالم حسب ما أوردته صحيفة هاآرتس الصهيونية (23).

الباحث الصهيوني يوفال جورين، تناول ظاهرة التلفيق منذ وقت قريب، وسرد قصصا تتعلق بالتلفيق والملفقين في مقال تحت عنوان" لوثة ظاهرة اورشليم المرضية"، حلل فيه نوعا من الأعراض المرضية أو الخبل الذي يصيب من يزور القدس أو يعيش فيها فيحوله" إلى انسان يتصرف تصرفات شاذة وتنتابه هلوسات توراتية".وربط بين هذه اللوثة وبين ملفقي الآثار الذين يستغلونها لرفع أسعار منتجاتهم، وتساءل" عما إذا كان مايزال يسيطرعلى علم الآثار التوراتي الهواة والدجالون". ولكن هذا الموظف في دائرة الآثار الإسرائيلية يتجنب ربط هذه الظاهرة القديمة قدم وفود علماء الآثار التوراتيين على فلسطين بالفكرة الصهيونية المخبولة القائمة على محو المكان الفلسطيني بماضيه وحاضره، بسكانه وعمائره وجغرافيته وتاريخه، وإحلال مكان وهمي مصدره الروايات اللاهوتية محله، وتوسل كل الوسائل في سبيل هذه الغاية (24).

وقد تبين من التحقيقات التي جرت في أوائل القرن الحالي أن هناك شبكة محتالين واسعة يعمل فيها ملفقو قطع أثرية ونصوص وناشرون صحفيون وخبراء لغات وعلماء تاريخ .. إلخ. ولوحظ أن أسماء معينة تتردد في كل حالة ينكشف فيها تزوير أو تلفيق، مثل اسم عالم الساميات الفرنسي أندريه لوميه والناشر لصحيفة علم الآثار التوراتي الشعبية الأمريكي هيرشل شانكس، وظيفتهم هي الترويج لهذه القطع حال ظهورها بالقول " أنها أدلة ملموسة" أو أنها" قطع لاسبيل للشك في أصالتها".. وما إلى ذلك (24). كما لوحظ أن هذه المطبوعات الترويجية تمتنع عن نشر كل رأي أو فحص يشكك بما يروجه أصحابها كما هو واضح من رسالة نشرها د. راينهارد ج. ليمان من جامعة مينز الألمانية كشف فيها عن زيف ماسمي " نقش يهوآش"، بعد أن رفضت مجلة هيرشل شانكس نشرها رغم أنها هي التي طلبت رأيه في هذا النقش، فاضطر إلى نشررسالته في موقع من مواقع الانترنت (25).

*   *   *

في هذا السياق، لاتخرج صورة القدس عن إطار هذه الرؤيا اللاهوتية، فهي ترتسم في المخيلة اللاهوتية أولا؛ ثم يأتي عالم الآثار فيبدأ التنقيب مسلما بوجود ما هو ذاهب للبحث عنه إلى درجة أن هذا التسليم يتحول إلى هوس مرضي.

وإلى هذا النوع من علماء الآثاريشير الباحث بيتر جيمس حين يقول:

" اجتذب هذا الحقل سلالة من العلماء اللاهوتيين السعداء بالحفر مع معول في يد وتوراة في اليد الأخرى. فإذا كان المنقب يؤمن بناء على النص اللاهوتي أن مرتفعا قديماً يجب أن يحتوي على مبنى من عصر سليمان مثلا، فمن المؤكد تقريبا أنه سيجد مبنى أو مباني وينسبها فورا إلى معتقده، ويمكن أن يجعل هذا الإيمان المسبق هذا النوع من " التعرف" ثابتا رغم إي دليل معاكس. وفي هذا الجو تنشأ صناعة سياحية صغيرة تبدأ بالنمو حول هذا " الدليل" (26) .

وقبل ذلك بسنوات طويلة كان عالم الآثار ماك آلسترقد ضرب مثلا على ما يولده هذا الهوس المرضي من آثار تؤدي إلى محو وطمس ما قد يكون قد عثر عليه المنقب وخالف إيمانه، أو لم يمنح إيمانه دليلا ملموسا، بهذا الحكاية الإيرلندية:

" دخل في رأس بعض الناس في إيرلندا أن تابوت العهد الإسرائيلي مدفون تحت مرتفع من مرتفعات تارا، وفي سعيهم وراء هذا الوهم حفروا ودمروا المرتفع. لم يجدوا التابوت، ولكن عرف أنهم وجدوا أشياء معينة ومباني قد تكون ذات فائدة للتاريخ المحلي ضاعت بسب السعي وراء هدف وهمي محدد" (27).

ومنذ وقت قريب أطلق عالم الآثار الإسباني رودريغو غالان اسم " الجرائم الأثرية الفظيعة" على هذا النوع من التنقيب، وأشار، كأنه يتحدث عما يحدث في القدس والأراضي الفلسطينية، إلى أن"هذه الجريمة ماتزال تتكرر دائما.. ذلك أن المنقب يبدأ عمله بتفكير مسبق عما يجب أن يجده..باحثا عن أدلة ومستندات تاريخية، على فكرة يريد أن يثبتها ويبرهن عليها، وأحيانا يصل إلى مايريد ، إلا أنه سيدمر شواهد وطبقات أثرية يمكن أن تتناقض مع نظرياته .. وبذلك يكون قد قام بتزييف للتاريخ، إضافة إلى حرمان علم الآثارمن وثائق يتجاوزها إثناء الحفر كان يمكن أن تساعدنا على وضع علم حقيقي بتاريخ المنطقة التي يتم التنقيب فيها" (28).

ويجيء بعد ذلك دور مؤرخ من نوع عجيب، يحول الرواية الشعبية إلى وقائع تاريخية لمجرد أنها رواية " دينية" غير آخذ في اعتباره الفرق بين التاريخ بوصفه حكاية عن الماضي يحكيها كل عصر بشروطه المعرفية، والتاريخ بوصفه ماحدث في الماضي. وهذا الموقف يعبر عنه أفضل تعبيراللاهوتي الاسكوتلندي إيان بروفان في إظهار قلقه وخشيته على "تاريخية" القصص التوراتي من تأثير الأبحاث الجديدة التي اانتزعت تاريخ فلسطين من قبضة اللاهوت، ويأخذ على باحثين من أمثال توماس تومسن ونيلز ليميش وآالستروم وفيليب ديفز نهجهم في إقامة البحث التاريخي على " العاديات الأثرية والمباني والنقوش المكتوبة التي خلفها أناس الأزمنة القديمة، والإنتباه إلى التغيرات المناخية وتنقلات السكان.. أي الفصل بين القصة والتاريخ" (29) . ولايرى في " التاريخ" إلا قصة تروى من وجهة نظر المؤلف، أي أنه يخلط بين التاريخ بوصفه "حكاية عن الماضي" وبين التاريخ بوصفه "ماذا حدث في الماضي" كما جاء في نقد فيليب ديفزله (30). والطريف أن هذا اللاهوتي الاسكوتلندي يضع على قدم المساواة كتابات مؤرخي مختلف العصور، من عاش في ظل عصر السحرومن عاش في ظلام القرون الوسطى ومن عاش في عصر العلوم الراهنة، فكلهم يكتبون

قصصاً، وكلهم لايمكن أن يكون " موضوعيا" . فلا وجود لحادثة يمكن أن يلاحظها المؤرخ مباشرة، ولا وجود لوقائع صلبة يبنى عليها، ولا وجود لمؤرخ لايغرق في الماورائيات، أي الميتافيزيقيا. وهكذا فالتاريخ مجرد "رواية" عن الماضي لاأكثر ولا أقل. فلماذا إذن يطالب هؤلاء الباحثون بنزع قبضة اللاهوت عن التاريخ مادامت كل كتابة للتاريخ هي قصة؟ ولماذا إقامة هذه الفجوة بين التاريخ والقصة؟ . إذا كان التاريخ كله كتابة ورواية قصص من وجهة نظرهذا اللاهوتي ، إذن هو لايختلف بين قديم وقروسطي وحديث. وليس منطقيا الإحتجاج بأن رواة "التاريخ" القدماء لم يمتلكوا الأدوات المنهجية الضرورية لكتابة التاريخ يمكن مقارنتها بما لدى المؤرخين المعاصرين، مادامت كل الآثار" صامتة" ولايمكن أن تنطق إلا عبر نص توراتي.

اللافت للنظر أن مايزعج هذا اللاهوتي ويجعله يلجأ إلى كل هذا التخليط هو الخلاصات التي يلح عليها المؤرخون الذين يشن هجومه عليهم، مثل قول الستروم " إن علم الآثار الفلسطيني هو الذي عليه أن يصبح المصدر الرئيس لكتابة التاريخ"،وليس كتبة توراة لم يكن همهم الحقيقة التاريخية كما هو هم أي مؤرخ معاصر. ومثل قول نيلز ليمش " لايجب أن يعمل الباحثون المعاصرون كناطقين باسم كتاب التوراة في ما يتعلق بالكنعانيين، بل عليهم أن يشكلوا أراءهم هم غير المنحازة عن حياة وثقافة الكنعانيين" (31).

ويرافق كل هذا النشاط "الآثاري" و"التاريخي" نشاط العسكري الاستعماري الذي يحتل الأرض ورسام الخرائط الذي يمحو أسماءها، ويلصق بها الأسماء اللاهوتية المتخيلة. وقد كشف أكثر من مصدر عن التزييف الذي أدخله عسكريون وعلماء لاهوت وسياسيون صهاينة على أسماء المواقع الجغرافية والمدن والتلال الأثرية الفلسطينية، والكيفية التي تم بها إلصاق الأسماء التوراتية الغريبة بمعالم هذه الأرض الغريبة عنها.

من هذه المصادرما كتبه باسهاب الصهيوني ميرون بنفنستي عن لجنة تشكلت من تسعة باحثين فور الإستيلاء على النقب الفلسطينية في العام 1949 بأمر من بن غوريون لعبرنة أسماء الأماكن ومعالمها، ويشير إلى أن عمل أعضاء هذه اللجنة كان قد بدأ في العام 1920 حين عين اثنان منهم كمستشارين لحكومة الإحتلال البريطاني في كل ما يتعلق بوضع الأسماء العبرية، فجاهدا طويلا وبشدة لإقناع السلطات البريطانية بوضع أسماء أماكن عبرية توراتية على خريطة فلسطين بدلا من الخرائط العربية التي كانت قيد الإستخدام (32). ومن هذه المصادر القريبة العهد التحقيق الذي أجراه توماس تومسن خلال عمله في القدس في العام 1986، وكشف فيه عن وجود عمل منظم ودؤوب لتجريد كافة أنحاء فلسطين من أسماء المواقع العربية منذ العام 1948 وصولا إلى السنوات الأخيرة (33).

ولاحظ عالم الآثار الإيرلندي ماك آلستر منذ وقت مبكركيف أن بعض معالم القدس التاريخية قد تم الإعتداء على ماضيها، فأطلق الصهاينة على قلعة هيرود اليونانية اسم " قلعة داود" ،وعلى بوابة الخليل اسم" بوابة يافا" الذي أطلقه الفرنجة، وكلا الاسمين خطأ (34). ومنذ وقت قريب زعمت أوساط صهيونية أن المسجد المرواني الملاصق للمسجد الأقصى ليس سوى ما يدعونه " اصطبلات سليمان" وبدأت وكالات الأنباء تتداول هذه التسمية (35) ، متجاهلة أن هذا الإسم ذاته سبق للمنقبين التوراتيين أن أطلقوه على عمائر في تل المتسلم جنوبي جبل الكرمل، ثم عادت عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينون في آخر محاضرات لها قبل وفاتها بوقت قصير، إلى التأكيد على أن الأخبار المتداولة حول وجود اصطبلات سليمان في ما أصطلح المنقبون التوراتيون على انها مدينة مجدو التوراتية لاتعدو كونها أخباراً مختلقة (36).

وظلت هذه التسمية حائرة في الهواء تبحث عن مكان تحط عليه، شأنها في ذلك شأن الكثير من الأسماء اللاهوتية التي ألصقت بالماضي الفلسطيني، مدنا وعمائر وتضاريس جغرافية ونقوشا، عنوة وبلا أي دليل ملموس سوى الهوس في نسبة هذه الأرض لطائفة دينية مرت في تاريخها كما مرت

الكثير من الطوائف، ثم تلفيق صلة نسب بين هذه الطائفة وجملة من معتنقي الدين اليهودي المعاصرين؛ أتراك وأثيوبيين ومغاربة وصينيين ، وما إلى ما هنالك من شعوب أعتنق بعضها الدين اليهودي كما هو شأن بعض آخر اعتنق ديانات أخرى أو تخلّى عن الإيمان الديني. ولم يعد خافياً أن إصرار الحركة الصهيونية على ربط الدين اليهودي بالعرق وتحويله إلى رابطة قومية ليس سوى استغلال للرابطة الروحية التي تشد يهودا من مختلف القوميات والأعراق إلى فلسطين، وتزويد مطامعها الإستعمارية بالوقود البشري والمالي .

اليهودية شأنها شأن أي دين آخر انتشرت بين عدد من الشعوب، ولا يمتلك أي منتم لهذا الدين حقا تاريخيا في أي أرض لمجرد أن يهودا أقاموا فيها تتجاوز حقه الوطني في أرضه هومثلما توهم الصهيونية. ووجود منتمين لهذا الدين في فلسطين وغيرها لايمنحهم حقا خرافيا من النوع الذي تحاول الصهيونية إثباته.

في أواخر سبعينات القرن العشرين، وفي دراسة معمقة لإمبراطورية قبيلة الخزرالتركية مثلا، تلك التي امتدت في العصور الوسطى بين البحر الأسود وبحر قزوين، ومن القوقاز إلى نهر الفولغا، يعرض الكاتب الروماني آرثر كوستلر لتحول هذه القبيلة إلى اليهودية تحت ضغط مقاومتها لضغوط القوتين العالميتين آنذاك؛ قوة بيزنطة وقوة بغداد المسلمة. ويدرس الكاتب باستفاضة تفكك هذه الإمبراطورية ونزوح بقاياها إلى أوروبا الشرقية، تلك البقايا التي شكلت غالبية معتنقي الديانة اليهودية في العالم الذين يطلق عليهم لقب الأشكناز، وهم الذين شكلوا مادة موجات الهجوم الاستعماري الأول على فلسطين (37).

من جانبه، يسخر الكاتب والموسيقار والناشط السياسي جلعاد آتزمون الذي فر من فلسطين المحتلة بعد خدمة في الجيش الإسرائيلي إلى بريطانيا حيث درس الفلسفة، من الفكرة الصهيونية القائمة " على تجريد اليهودية من محتواها الديني وتحويلها إلى عرق، أي إلى مفهوم عنصري.. فسبقت بذلك النازية زمنيا في الحديث عن " الدم" اليهودي و" النسل" اليهودي، في وقت لم يكن فيه هتلر إلا رضيعا في لفائفه". ويقول في لقاء موسع معه " إننا لانستطيع توجيه النقد إلى اليهود كجماعة متجانسة لأنهم لايشكلون شعباً أو استمرارية عنصرية أو حتى هوية إثنية أو ثقافية.. الإختلافات الثقافية بين اليهود السفارديين والأشكناز قائمة، وأبعد من مجرد الإختلاف الثقافي". ويميل آتزمون إلى الاعتقاد بأن كل الأشكناز خزريون ولا شأن لهم، او الغالبية العظمى منهم، بكنعان (38).

صحيح أن هؤلاء لايمتلكون سوى النص اللاهوتي والخيال وسيلة لإثبات حضورهم، كما يقول عالم آثار فلسطيني للباحثة نادية أبو الحاج، وأن الإنسان لايحتاج إلى تخيل المعمارالعربي حين يتجول في عكا أو في أي مكان أخر في فلسطين، لأنه واقعة قائمة في كل قرية وفي كل منطقة، ولكن هذا العالم يخفق بالفعل كما تقول الباحثة، في أن يأخذ في اعتباره أحد جوانب المخيلة الإستعمارية المهمة " فقد لفقت هذه المخيلة، بحقول متراكبة من الممارسة العسكرية والقانونية والسياسية والبحثية(أثرية ومعمارية وتخطيط مدن وتصميم متاحف)، التاريخ والتأريخ على حد سواء" (39).

ولايمكن التخفيف من آثار هذا البعد الإستعماري، أو استبعاده كأداة تفسير، لأن الكيان الاستعماري المسمى إسرائيل" يسقط على القدس فكرة لاتناقض تاريخها فقط بل وواقعها المعاش ذاته، فيحولها من مدينة متعددة الثقافات والديانات إلى مدينة يهودية منطلقا وغاية، موحدة إلى الأبد تحت السيادة الإسرائيلية حصرا.. والوسائل هي تغيير طوابعها المعمارية والسكانية والسياسية تغييرا كاملا، لتتوافق من ثم مع الصور والإسقاطات " كما يقول إدوارد سعيد (40).

بالإضافة إلى هذا الإسقاط الذي شمل كل الأرض الفلسطينية، وتسلط على جغرافيتها وتاريخها حتى قبل قيام هذا الكيان في سياق تنافس القوى الاوروبية على أراضي الدولة العثمانية مع نهاية القرن الثامن عشر، إختص الإستعمار الصهيوني القدس طيلة أكثر من ستين عاما بعمل مكثف دؤوب تناول تشريد سكانها وهدم أحيائها. ولم يكن إحتلال شرق القدس في العام 1967 سوى الفصل الثاني الذي

كتب في مصير هذه المدينة، أما الفصل الأول فقد حدث في العام 1948 حين تم احتلال الشطر الغربي من المدينة، وشرد الصهاينة المحتلون 30 ألفا من سكانه الفلسطينيين واحتلوا أحياءهم . هذا تاريخ خسارة لم يكتب كما يرى إدوارد سعيد، ولم يسمع أحد صوت الفلسطينيين (41).
فقط في السنوات الأخيرة بدأت تظهر الرواية الصهيونية للسياسات المبرمجة لمحو وجود الفلسطينيين ومحو آثارهم، وتحويلهم إلى كائنات غير موجودة. أما الفصل الثاني فلم يكن سوى مواصلة لهذه السياسات منذ اللحظة الأولى لاحتلال شرق القدس وهدم حي المغاربة التاريخي والاستيلاء بالقوة على بيوت سكانها وتشريد المزيد من الفلسطينيين، وترسيخ الواقع الاستعماري.
وحسب وصف أولي لما بدأ يحدث، وتكثف خاصة بعد ما تدعى اتفاقيات اوسلو، ترسم الباحثة آنيتا فيتولو صورة لخطط إسرائيل السرية منذ العام 1992، وهي لم تعد سرية، مثل الاستيلاء على غربي سلوان وحي الشيخ جراح، وإقامة شبكة طرق سريعة حول القدس، مثل الطرق الأخرى في فلسطين الشرقية، هدفها واضح في ربط المستعمرات الصهيونية وتطويق وإغلاق الأحياء الفلسطينية وتحويلها إلى معازل أو غيتوات حسب الإصطلاح الغربي. وتلاحظ الباحثة منذ ذلك الوقت أن الطريق رقم 1 الذي شقته سلطات الإحتلال بمحاذاة حدود العام 1967 والكتلة الضخمة التي نشأت حوله يستهدف تحويل الأحياء الفلسطينية إلى " غيتوات" في المستقبل، وفي الوقت نفسه" إنشاء حضور يهودي". وتظهر جولة في شمال شرق القدس موجات من المجمعات الاستعمارية تقوم واحدة بعد الأخرى.. وتكتسب عملية استعمار دواخل المدينة القديمة زخما أعلى في باب الواد وباب الحطة وعقبة خالد. هنا تم الاستيلاء على أكثر من ثلاثين ألف بيت ومبنى، والهدف هو تفتيت الحي الاسلامي وإجبار الفلسطينيين على الخروج منه. وتتضمن عملية الاستيلاء على البيوت والمباني شبكة معقدة من الإجراءات، تزوير الأختام، ونزع ملكية من يسمون" الغائبين" والتلاعب في مسألة المواريث العربية، والرشاوي والخدع الضريبية .. واستخدام القوة المجردة (42).
والنتيجة هي إقامة مشهد طوبوغرافي مشوش وملفق يدعى "اورشليم"، يجمع بين بناء أحياء خاصة باليهود والتنقيب واستخراج آثار معمارية قديمة تنسب إلى من يسمون"الإسرائيليين القدماء" إعتباطا، وإقامة متاحف تروى بين جدرانها قصص توراتية لاعلاقة لها بهذه الجدران ولا بما احتوته من عاديات أمام سواح يتعرضون للإيهام بأن ما يشهدونه هو ماضي "اورشليم" اللاهوتية، بينما الحقيقة هي أن مايشهدونه هو ماضي القدس المغيب بسطوة النص والتلفيق والإحتلال، ولاشيء غيرهذا.

*　　　*　　　*

الصورة المتخيلة للقدس، ولفلسطين بعامة، هي نتاج خطاب غربي ضغط بمسلماته على ميدان البحث في تاريخ فلسطين الحقيقي، وغيب هذا التاريخ،وقدم للعالم، والغربي بخاصة، صورة مستلة من المرويات التوراتية الدينية. هذه هي الخلاصة التي يصل إليها الباحث كيث وايتلام خلال دراسته لتاريخ فلسطين القديمة متناولا الوقائع المادية والأيديولوجيات وديانات المنطقة، وأخذا في الإعتبار موضوعات التاريخ الواسعة مثل الإستيطان والسكان والإقتصاد. لقد وجد نفسه، بتعبيره، في مواجهة مشكلة رئيسية، هي أن أي مشروع دراسة من هذا النوع عليه أن يواجه عقبة كبرى ويتغلب عليها، تلك هي ما يمكن تسميتها "خطاب الدراسات التوراتية"، الذي هو جزء من شبكة معقدة من العمل البحثي عرّفها إدوارد سعيد بوصفها "خطاب الإستشراق". لقد تجاهلت الدراسات التوراتية وأخرست تاريخ فلسطين القديمة لأن موضوع اهتمامها هو إسرائيل قديمة تم تصورها وعرضها على أنها

الجذر الذي نبتت منه الحضارة الغربية...ومن أجل هذه الغاية ركزت هذه الدراسات على واخترعت على نطاق واسع كينونة إسرائيل قديمة، وتجاهلت واقع التاريخ الفلسطيني كله (43).

وحاول في ما بعد علماء آثار يطلقون على أنفسهم لقب علماء آثار توراتيون، وحاول علماء لغات ورسامي خرائط وعسكريون من جنسيات اوروبية مختلفة إيجاد أدلة مادية تدعم هذه الصورة أو الجوهر الثابت بتعبير نيل سلبرمان. وفي هذا الإطار ركزت التنقيبات الصهيونية في القدس على"تحويل المكان وصناعة مشهد جديد، واختراع استخدامات جديدة، وإعادة تفسير العاديات الأثرية"، وتوضح هذه العملية كيف عمل علم الآثار الصهيوني على تحويل وتغيير الحقائق في القدس القديمة، محدثا نسقا جديدا بين وقائع تاريخية مخترعة ووقائع معاصرة مختلقة أيضا، وفي نطاق كل هذا تمت صياغة مزاعم إمتلاك الحاضر والمستقبل وليس الماضي فقط. فما كان يتوصل إليه الصهاينة من استنتاجات كان موجودا في " نظرية" جاهزة سلفاً؛ هناك قصة مسبقة تقوم على مصادر نصية لاهوتية توجه التنقيب، وتعمل كإطار للتفسير والتعرف على هوية الآثار، وتعيد إنتاج الدليل الموجود سلفا ...لم يكن الأمر سوى حفر الأرض لكي تظهر الآثار للعيان، ليس بمجرد تحويل الغائب إلى حاضر فقط ، ولكن بتحديد أكثر، بخلق زوايا رؤية معينة تعاد صناعة المشهد بوساطتها (44).

ويشبه هذا العمل كما يشير أحدهم، باستعارة من عالم النحت، افتراض وجود تمثال ما في قلب قطعة رخام، وكل ما على الباحث والمنقب عمله هو إزالة طبقات الرخام لإخراج هذا التمثال، أي بالتنقيب واستخراج مايؤمن المنقب بوجوده سلفا قبل أن يضرب بمعوله في الأرض (45).

ولكن التنقيب في الأرض الفلسطينية المتواصل منذ أكثر من قرنين لم يخرج بالتمثال المأمول، بل أخرج آثار سكان هذه الأرض منذ اقدم عصور تحضرها، وأظهر أن طوابع هذه الأرض ظلت على مدار عصورها تشي بطابع كنعاني لاأثر فيه لأي جزء من أجزاء الصورة المتخيلة. فبعد كل هذا الزمن، يلخص مؤلفا كتاب "علم الآثار والتوراة" البريطانيان، جوناثان تب و روبرت تشابمان، الأدوار الحضارية التي سادت في فلسطين منذ بواكير عصر البرونز مرورا بعصر الحديد ووصولا إلى مرحلتي الهيمنة اليونانية فالرومانية، ويكشفان على أساس حقائق التنقيبات وليس على أساس الخيالات اللاهوتية، أنها أدوار حضارة واحدة هي الحضارة الكنعانية التي لم يدخلها أي عنصر غريب من حضارات أخرى. وهذا معناه أنه لامكان بالفعل لما يسمى "دولة إسرائيل" ولا خريطتها في فلسطين. ثم يتوصل المؤلفان في ضوء هذا إلى " أن العلم الحديث يرفض لحسن الحظ (حسب تعبيرهما) الميل الذي هيمن خلال أكثر من قرن نحو استخدام علم الآثار كأداة لإثبات أو نفي صحة التوراة كوثيقة تاريخية" (46).

من هنا وأمام هذا الواقع الصلب الذي بدأ يستند إليه باحثون غربيون في رفض تاريخية المرويات التوراتية بدأت تشيع في كتابات الصهاينة على اختلاف جنسياتهم، نظرية أن سكان هذه الأرض القدماء حتى وإن كانوا ليسوا " إسرائيليين قدماء" لايمتون للعرب بصلة، إنطلاقا من مبدأ ينم عن الخبل الإستعماري في أوضح صوره؛ ربط الوجود القومي بالعقيدة الدينية، وهكذا يروج الصهاينة لمقولة أن الوجود العربي في فلسطين، بل وفي المنطقة كلها، ارتبط بظهور الإسلام، أي أن حضوره في فلسطين حديث لايتجاوز 1300 عام تقريبا. وهنا لايفوت أي باحث ملاحظة أن تنكر كتاب ومؤرخون صهاينة للوجود العربي في فلسطين التي كانت جزءا من جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ببضعة ألوف من السنين، وحصر هذا الوجود بالمرحلة الإسلامية، يقوم على نفس التلفيق الصهيوني نفسه الذي يجعل الدين دليلا على الرابطة القومية. وقد أوردت الباحثة ناديا أبو الحاج مقتطفات من هذه الأقاويل الساذجة التي تربط هوية الشعب بالدين، فقط لتأييد الزعم بأن لاصلة لمن اعتنق الدين الاسلامي من العرب بالقبائل العربية الكنعانية التي امتد وجودها الحضاري على سواحل

سوريا الكبرى منذ أربعة آلاف عام ق. م، وخرجت آثارها إلى النور في مدن فلسطين ولبنان وسوريا (47).

وسيمتد هذا النفي للواقع العربي، والفلسطيني بالتالي، إلى العصور الحديثة، وسيتحول هذا الحضور بأقلام الصهاينة إلى وجود متخيل غير واقعي، أو مضى على الأقل وتلاشى، حتى أن الذين يحتلون الآن قرى الفلسطينيين ومدنهم ويقيمون في عمق القدس التي تحاصر هؤلاء الغرباء بطرقاتها ومبانيها لايرون حسب ما يرى الروائي الصهيوني يزهار سميلانسكي إلا" مكانا غادر مكانه ولاشيء آخر. لايوجد أعداء هنا ولا غير- أعداء . هنا مجرد قصة تقول ماحدث بصيغة الفعل الماضي" في إشارة إلى المشهد الذي اختلقه الصهاينة(48)

اشارات

1- Carol Meyers, Engendering Syro- Palestinian Archaeology: Reasons and Resources, Near Eastern Archaeology, Vol. 66, No. 4 (Dec., 2003) p. 187

2- Keith Whitelam, The Invention of Ancient Israel, the silencing of Palestinian history, Routledge, London and New York, 1996, p.11

3- Yuval Goren, The Jerusalem Syndrome in Biblical Archaeology, Society of Biblical Literature Forum, March 2005, sbl-site.org

4- Etian Bar-Yosef, The Holy Land in English Culture 1799-1917, Oxford University Press, 2005, pp. 1-3

5- Edward Fox, Palestine Twilight: The Murder of Dr. Albert Glock and the Archaeology of the Holy Land, Harper Collines Publishers, London, 2001, p.55

6- Joanne Witke, A Synoptic poem, Comparative Literature, Vol. 22, No.3 (Summer, 1970), p.265. Published by: Duke University Press.

7- Shelly Perlove, An Irenic Vision of Utopia: Rembrandt's "Triumph of Mordecai" and the New Jerusalem, Zeitschrift Fur Kunstgeschichte, 56., H.I (1993) Berlin, pp. 39-40

8- Ilan Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine, Oneworld Publications Limited, Oxford, 2006, pp. 10-11

9- Abbas Hamdani, Columbus and the Recovering of Jerusalem, Journal of the American Oriental Society, Vol. 99, No.1 (Jan., Mar, 1979), pp. 39-41

10- Lawrence Davidson, Biblical Archaeology and the Press: Shaping American Perception of Palestine in the First Decade of Mandate, The Biblical Archaeologist, Vol. 59, 2. (Jun., 1996), pp.104-105

11- Neil Asher Silberman, , The Biblical Archaeologist, Vol. 54, No. 2(Jun., 1991), pp.78-79

12- د. جوزيف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمه عن الفرنسية بطرس حلاق وماجد نعمة وراجعه حسن فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976، الصفحات من 216 إلى 239

13- Jack M. Sasson, Albright as an Orientalist, The Biblical Archaeologist, Vol. 56, No.1 (Mar., 1993), p.6
14- R. A. S. Macalister, A century of Excavation in Palestine, The Religious Tract Society, London, 1925, pp. 22-23
15- Neil Asher Silberman, op. cit. p. 78
16- Edward Fox, op. cit. pp. 53-54
17- Nadia Abu El-Haj, Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israel Society, The University of Chicago Press, Chicago & London, 2001, pp. 130-170-174
18- Thomas L. Thompson, The Bible in History: How Writers Create a Past, Jonathan cape, London, 1999, p.12
19- Stephen L. Cagier, Archaeological Facts and Fancy, The Biblical Archaeologist, Vol. 9. No.3 (Sep., 1946), p.62
20- Hershel Shanks, Fakes: How Moses Shapira Forged an Entire Civilization, Archaeology Odyssey Magazine, Sep/Oct., 2002, pp. 33-44
21- Stephen L. Cagier, op. cit. p. 64
22- W. F. Albright, The Lachis Letters after five years, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No. 82 (Apr. 1941), p.22
23- Jonathan Lis and Nadav Shragai and AP, Alleged Forger of Holy Land Antiquities held, Haarets, 23/7/2003
24- David Brown, Is Oded Golan behind scholarship's biggest fraud ring? An unholy row goes to court, The Daily Telegraph Magazine, May 14 2005
25- Reinhard G. Lehmann, The Jehoash Inscription: it isn't because it is too much at the same time!, Orientalisti. net, March, 25, 2004
26- Peter James, Centuries of Darkness, Pimlico, London, 1992, p. 162
27- R. A. S. Macalister, op. cit. pp. 32-33
28- رودريغو مارتين غالان، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، تعريب وإضافة د. خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1998، الصفحات 18-19
29- Iain W. Provan, Ideologies, Literary and Critical: Reflections on Recent Writing on the History of Israel, Journal of Biblical Literature. Vol. 114, No.4 (Winter, 1995), pp. 585-606
30- Philip R. Davies, Method and Madness: Some Remarks on doing History with the Bible, Journal of Biblical Literature, Vol. 114, No. 4 (Winter, 1995), p.701
31- Philip R. Davies, op. cit. p. 701
32- Meron Benvenisiti, Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land since 1948, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, 2000, pp. 11-12
33- توماس تومسن، في حوار عن تاريخ فلسطين القديمة بين العالم والخرافات والأساطير، أجرى الحوار زياد منى، صحيفة" الحياة" اللندنية، العدد 13882، مارس 2001، ص 21

34- R. A. S. Macalister, op. cit. p. 49
35- وكالة رويترز، 8 ديسمبر1999
36- كاثلين م. كينون، التوراة والمكتشفات الأثرية الحديثة، تعريب سليم زيد وشوقي شعث، دار الجليل، دمشق، 1988، ص 46
37- Arthur Koestler, The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and its Heritage, Picador, Published by Pan Books, London, 1976, pp. 175-176
38- Gilad Atzmon, Interviewed by Manuel Talens, La belleza como arma politica, Momoria, Mexican monthly magazine, No. 202, December 2005
39- Nadia Abu El-Haj, op. cit.pp.199-200
40- Edward W. Said, Projecting Jerusalem, Journal of Palestine Studies, Vol. 25, No.1 (Autumn, 1995), p.6
41- Ibid. pp. 7-8
42- Anita Vitullo, Erasing Arab Jerusalem, Middle East Reports, No. 175, (Mar- Apr. 1992), pp. 24-25
43- Keith W. Whitelam, op. cit. pp. 1-13
44- Nadia Abu El-Haj, op.cit. pp.130-131
45- Ibid. pp.130-131
46- Jonathan N. Tubb And Rupert L. Chapman, Archaeology and the Bible, British Museum Publications, London, 1990, p. 7
47- Nadia Abu El-Haj, op. cit. pp. 250-251
48- Meron benvenisiti, op. cit.p.4

دراسة أعدت بمناسبة تكريس القدس عاصمة للثقافة العربية في العام 2009